المحاضرة الثامنة

الأبعاد التداولية للخطاب(المقاصد)

عناصر المحاضرة:

1. **مقدمة:**
2. **مفهوم المقصدية الخطابية**
3. **المقصدية في التراث العربي**
4. **المقصدية في الدرس الغربي**

مقدمة:

ترتكز التداولية في جوهري النظري والتطبيقي على التموضع في مجال مفهومي يفرق بين اللغة وبين استعمالاتها، باعتبار أن دلالة الوضع كما يعرفها اللغويون هي دلالة الألفاظ والجمل على المعاني في حالتها الصورية المطلقة، بغض النظر عن السياق التخاطبي، بينما دلالة الاستعمال هي دلالة اللفظ والجملة على المعنى ضمن سياق معين.

وعلى هذا الأساس فإن جوهر الدرس التداولي يستند أساساً على فهم وتفسير العلاقة التي تربط القول بمستعمله، ضمن شروط معينة، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً أمام قراءات قد تختلف تماماً عن معاني الملفوظات في صورتها اللغوية المجردة، لتحمل هذه الملفوظات معاني جديدة، وتكسب الخطاب مقاصد ثاوية تحت معانيه الظاهرة، وهو ما اصطلح عليه بالمقاصد الخطابية، أو الاستراتيجية الخطابية التي تبنى على مجموعة قواعد،وتؤل أيضاً ضمن مجموعة ضوابط.

1. مفهوم المقصدية الخطابية:

1.1. لغة:

ورد لفظ (القصد) في لسان العرب بمعنى« اسْتِقَامَةُ الطَرِيقِ، فَقَصَدَ يَقصِدُ قَصْداً، فَهُو قَاصِدٌ،وقوله تعالى:« وَعَلَى ٱللَّهِ قَصدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنهَا جَآئِر وَلَو شَآءَ لَهَدَىٰكُم أَجمَعِينَ »[1]، أَي عَلَى الله تَبْيّانُ الطَرِيقِ المُسْتَقِيمِ، « وَالدُعَاءُ لَهُ بِالحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ الوَاضِحَةِ...وَطَرِيقٌ قَاصِدٌ سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ»[2].

كما نجد ابن جني(ت392هـ) قد تعرض إلى ذكر الجذر اللغوي لمصطلح القصدية فيقول:« أصل (ق،ص،د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان يخصه بعض المواضع

[1] سورة النحل. الآية 09.

[2] ابن منظور: لسان العرب.(قصد).ص 3642.

يقصد الاستقامة دون الميل،ألا ترى أنك تقصد الجور تارة، كما تقصد العدل أخرى! فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعاً»[3]، فالمتأمل لهذا المفهوم يمكن أن يقف على العلاقة الظاهر بين المعنى اللغوي و نظيره في حقل الدراسات اللسانية الحديثة، والتي لا يبتعد كثيراً عن هذه الدائرة.

2.2.اصطلاحاً:

أ. في الثقافة العربية:

تفطن العلماء العرب لغويين كانوا أو بلاغيين لمفهوم المقصدية باكراً ببعدها اللساني، عندما ربطوا هذا المصطلح بمفهوم العقل والتوجيه، المرتبط بالممارسة والاستعمال، والحكم القائم على التفريق بين الشيء وضده، في الوقت الذي حصر فيه نحاتنا القدماء تصورهم للقصد بـ« الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب (ف) مراعاة الغرض من الكلام (فهي) قرينة تساعد على تحديد الوظيفة النحوية للكلمة، وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة»[4] ومن أمثلة ذلك:

-ابن جني: الذي حدد بوضوح مقاصد الكلام من خلال تعريف اللغة ذاتها، بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[5]، فالغرض من اللغة هو في الأساس هدف يرمي المتكلم إلى تحقيقه، سواءً تعلق بالإخبار أو الإستخبار،« فاللغة إفادة وإخبار قبل كل شيء، ووظيفتها تتحدد لتلك العلة بالطاقة الإبلاغية»[6].

-أبو الهلال العسكري: الذي يرى أن البلاغة هي«كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[7]، فهي تقوم على

---

[3] ابن منظور: لسان العرب.ص 3643.

[4] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ص 200. 201

[5] ابن جني: الخصائص.تح/محمد على النجار.دار الكتاب العربي.بيروت.ج1.د/ط.د/ت.ص 33.

[6] عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية. ص214.

[7] أبو الهلال العسكري: الصناعتين.ص 06.

مبدأ الاتصال واستخدام اللغة استخداماً سليماً، يضمن وصول المعنى إلى المخاطبين،كما هي في نفوس المتكلمين،بحسب اختلاف أحوالهم ومقاماتهم.

– السيوطي إذ ربط الكلام بشرط الإفادة، عندما قال بأنه«يطلق على كل ما يفيد سواءً استخدم لإفادة اللغة في تركيب صوتي أو كتابي، أو لم يستخدمها اكتفاء بدلالات خارجية، أو الاستدلال من الموقف والمقام»[8]، في الوقت الذي تساءل فيه آخرون عن مدار هذه الإفادة، فيما إن تعلقت بإفادة المخاطب بما يجهل أم لا، وفي اشتراط قصدية المتكلم المسبقة من عدمها، وإن كان أكثر النحاة يجعلون الجملة أعم من الكلام، وعليه فهم يشترطون للكلام أن يكون مفيداً فائدة تامة يحسن السكوت عليها، لأن الجملة قد تكون أحياناً غير مفيدة على غرار جملة الشرط وجملة جوابها...إلخ، فهذه جمل تجاوزاً فقط.

– طه عبد الرحمن والذي تطرق كتابه " في أصول الحوار" إلى مفهوم القصد من زاوية كلامية فلسفية جاعلاً القصد، فعلاً تواصلياً قائماً على ضوابط وشروط،ومن ذلك تجاوب المرسل إليه مع قصد المرسل، الذي هو ملزم بتوجيه هذا القصد إليه ودفعه إلى التفاعل معه بطريقة أو بأخرى(مبدأ التعاون)، إذ« أن قول القائل لا يمكن أن يفيد شيئاً إلاّ إذا قصد القائل...أن يدفع قوله إلى نهوض "المقول له" بالجواب، وأن يعترف "المقول له" على هذا القصد، وأن يكون انتهاض "المقول له" بالجواب مستنداً إلى تعرفه على قصد "القائل"»[9].

وينزل طه عبد الرحمان المقصدية القولية منزلة المحور في عملية التواصل البشري بصفة عامة، الأمر الذي يفضي– من منظوره– إلى تعدد هذه المقاصد وتداخل مستوياتها،

---

[8] علي أبو المكارم: الظواهر اللغوية في التراث النحوي. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.القاهرة. ط1. 2006. ص71.

[9] طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام . المركز الثقافي العربي.المغرب.ط04. 2010.ص45.

المرتبطة أساساً يتغير وضعية المتكلم (القائل)، كأن يميز بين« قصد الخبر وقصد صدق الخبر...وقصد الإخبار وقصد التأثير وما إليها»[10].

وهي الفكرة ذاتها التي أشار إليها البلاغيون العرب في أكثر من موضع، عندما جعلوا البلاغة مقترنة بشرط الإفادة والتأثير في المستمع، واستمالته عقلياً أو عاطفياً، حتى تتلاحم حلقات عملية التواصل والتبادل الفكري بين المتكلم والسامع، جاعلين الاستعمال منطلقاً ينقل اللغة من صورتها التجريدية إلى أنماط تواصلية تضطلع بوظائف متعددة حتى أمكن «نعت البلاغة بفن القول»[11]، هذا القول الذي يتحقق بالآداء الفعلي القائم على استثمار مستويات اللغة المختلفة.

ب. المقصدية الخطابية في الدرس الغربي:

اهتمت الدراسات التداولية بدراسة السبل والوسائل التي يمكن للمرسل أن يسلكها في خطابه لتحقيق أغراضه و مقاصده التواصلية,وأطلقت عليها مصطلح الاستراتيجية، فما هي الاستراتيجية الخطابية ؟

الاستراتيجية مصطلح نشأ في أوساط عسكرية بالأساس، وهو يطلق عموماً على الطرق والخطط الموضوعة من طرف الهيئات العسكرية لتحقيق أهدافها وسياساتها الدفاعية، ولكن سرعان ما تسرب هذا المصطلح، بل وكثر استعماله في العديد من ميادين المعرفة في مختلف الثقافات، ومن ذلك الثقافة العربية، التي تبنت هي الأخرى هذا المصطلح بلفظه الدخيل هذا.

ويكتسي هذا المصطلح معانٍ ودلالات متقاربة، لا تخرج عن معنى التخطيط والتدبير لتحقيق هدف معين أو التحكم في وضع معين، فهي مجموع الطرق المتبعة لتناول مشكلة معينة أو القيام بمهمة من المهمات، وعليه فالإستراتيجية هي عملية ذهنية تتحقق على أرض الواقع انطلاقاً من الفاعل الرئيس الذي يتولى في البداية تحليل الظروف

---

[10] المرجع نفسه.ص45

[11] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص.ع164.سلسلة عالم المعرفة. الكويت.د/ط.1992.ص 123.

والملابسات المحيطة بهذه المهمة،ليتم انتقاء الإمكانات والسبل التي تضمن بالفعل تحقيق هذه المهمة، وبلوغ الأهداف المسطرة مسبقاً.

فالبعد التخطيطي الذي يعتمد العقل هو الأساس، ويكمله البعد المادي، وهو بعد إجرائي يهدف يسعى إلى تنفيذ الاستراتيجية وتحقيقها فعلاً، وعلى هذا فالاستراتيجيات تتعدد وتتنوع بتنوع الظروف المحيطة « فما يكون مناسباً في سياق معين، قد لا يكون كذلك في سياق غيره، وبهذا فإن تغيير بعض العناصر يستتبع تغيراً في الاستراتيجية المنتقاة لتحقيق الهدف، فلا ينحصر فعل الفاعل في استعمال استراتيجية واحدة، ثابثة دوماً»[12]، وكان لزاماً على الفاعل فقه هذه الخصوصية،«محاولة التكيف مع عناصر السياق المحيط بالفعل»[13].

واستراتيجية الخطاب هي الأخرى لا تخرج عن هذا المفهوم العام، فمن ينتح الخطاب لا ينتج خطابه بطريقة عفوية تلقائية، بل هو يخطط مسبقاً له، باستثمار مستويات اللغة، واستعمالها بطريقة مخصوصة ومكيفة مع عناصر السياق، ويخطط لكيفية إنتاجه وكذا سبل إيصاله إلى متلقيه بالصورة التي رسمها مسبقاً، الخطاب المنجز يكون مخططاً له بصورة مستمرة وشعورية،« وهنا يصبح التفكير الذهني القائم على تحليل السياق لانتقاء أنسب الاستراتيجيات عملاً ضرورياً»[14].

وعليه فإن انتقاء الاستراتيجية المناسبة، وهو أمر لا يتأتى إلاّ إذا تمتع هذا المرسل بمجموع ملكات أطلق عليها تداولياً بالكفاءة التداولية،إذ« لا يمكن الاكتفاء بالملكة النحوية، ذلك أنه تضاف إليها الملكة التداولية التي تنطوي على قواعد تسمح للمتكلم بتأويل ملفوظ

---

[12] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص 53.

[13] المرجع نفسه.ص 55.

[14] المرجع نفسه.ص 56.

بالنسبة إلى سياق معين»[15]، والتي تتسع لتشمل جملة من المواصفات التي تمكن المرسل من:

« 1.إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة.

2.تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة، ليتم اختيار الاستراتيجية الخطابية الملائمة.

3. التلفظ بالخطاب»[16]، كمرحلة أخيرة تتبلور من خلالها المراحل السابقة.

وعلى هذا فالكفاءة التداولية هي نسق مركب من مجموع من القدرات التي تسمح للمرسل بإنتاج خطاب ملائم وناجح، وما على المرسل إلاّ فهمه و تأويله تأويلاً صحيحاً، وقد حصر التداوليون هذه القدرات في خمس ملكات هي:

-الملكة اللغوية: وتتيح للمرسل إنتاج بنية لغوية معقدة في مواقف متعددة وتأويلها.

-الملكة المنطقية: تمكن من توليد معارف جديدة اعتماداً على عمليات استدلالية معقدة.

-الملكة المعرفية: وهي القدرة على اشتقاق وتخزين واستحضار عبارات لغوية في الوقت المناسب.

-الملكة الإدراكية: تمكن المتكلم من تكييف معارفه، اعتماداً على إدراكه للمعطيات المحيطة بالخطاب.

-الملكة الاجتماعية: وتتيح للمرسل استعمال اللغة الطبيعية في مواقف تواصلية معينة، لتحقيق أهداف تواصلية مخصوصة.

---

[15] دومنيك ما نغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب.ص 27

[16] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب.ص 63.

وبناءً على هذا فالكفاية اللغوية التي قال عنها تشومشكي(Chomsky.N)غير كافية، لأن مستعمل اللغة لا تقتصر قدراته على معرفة الجوانب النحوية في اللغة، بل تتعداها إلى إنتاج خطابات مناسبة لأنماط تواصلية مختلفة.